

من باب الفنوح إلى باب النصر

« الحرية .. شبر الأرض ، وماء النبع ، قبر الجدد ، وأمل الغد .. وضحكة طفل يلهو في ظل البيت . وذكرى حب ، وقبة جامع أدوا يوماً فيه صلاة الفجر .. بأوجز كلمة .. عظمة أمة » .

بهذه الكلمات الثائرة في عمق ، الشاعرة في صدق ، تنتهى مسرحية (باب الفنوح) للكاتب المسرحي (محمود دياب) ، وهى المسرحية التى كتبت بعد الهزيمة فصودرت ولم يرفع عنها الستار ، وها هى تصدر بعد النصر ، ليرفع عنها ستار ذات المسرح .. المسرح القومى .

فما الذى تقوله هذه المسرحية ؟

تقول باختصار إن انتصار السيف وحده لا يكفى إن لم يدعمه انتصار الفكرة ، فالفكرة هى التى تعطى النصر الحرقى عمقه ومعناه ، وهى التى تخلع عليه دلالة ومغزاه ، وبدون الفكرة يصبح النصر أنشودة مجنحة فى الهواء ، دون أن يكون نشيداً يذب فوق الأرض ، وما الفكرة سوى التعميق الحقيقى للنصر فى جذور الواقع ، وفى ضمائر الجماهير .. أعطى الفكرة وأنا أحقق لك النصر . ولكى تجسد المسرحية هذا المعنى ، عمد كاتبها إلى التاريخ مستحضراً إياه إلى

واقعا المعاصر ، ليس التاريخ الجامد المشلول . المحنط في أروقة المتاحف والمخزون في دور الكتب ، ولكنه التاريخ النابض الحى الذى يشارك إنساننا المعاصر فى صناعته وفى إعادة صياغته من جديد . . أليس يختار الإنسان ماضيه كما يختار حاضره ، بإعادة تفسيره للتاريخ . . ؟!

هكذا تطلعتنا المسرحية بمجموعة من الشبان ، ضاع من بين أقدامهم الطريق ، فراحوا يبحثون عن بوصلة ترشددهم إلى السبيل ، سبعة من الشبان المعاصرين بينهم فتاتان ، أما البوصلة فهي التاريخ . . صحيح أن التاريخ ليس هو الحقيقة كل الحقيقة ، فهو عادة ما يكون تاريخ الحكام وليس تاريخ المحكومين ، تاريخ يكتبه السادة لكى يمجّدوا به القادة ، فيشتوا أشياء ويسقطوا أشياء . . ولكنه هنا فى هذه المسرحية وكما يقول الشاب الخامس : « نقرأ التاريخ كما كتب يا رفاق ، ولكننا سنعيد صناعته ، نعيد صياغته ، نرد إليه ما أنقص منه ، ونستبعد منه ما لا نقبله . . بكلمة مختصرة . . نصنع الحقيقة » . .

وتستعرض مجموعة الشبان تاريخنا كله ، حتى تقف عند عصر الفتح الإسلامية ، إنه (عصر صلاح الدين) ، شمعة من الشموع المضيئة على طريق تاريخنا العربى ، أضاءت فى ليل حالك من ليالى الحروب الصليبية حيث سقطت فلسطين فى الشرق ، وسقطت الأندلس فى الغرب ، وفى البحر سقط البحر الأبيض المتوسط . ولكن (شمعة صلاح الدين) سرعان ما احترقت ، خبا نورها ، ولعقت زيتها . وعاد الظلام ، فقد عاد الفرنجة بعد شهور ، واستعادوا البلاد العربية بما فيها مدينة القدس نفسها ، وأضحى (نصر صلاح الدين) كشعاع الشمس يسطع على جناح طائر ..

ولكن هل معنى هذا أن « صلاح الدين » لم يكن قائداً عظيماً ؟ . .

تقول المسرحية إنه كان بالفعل قائداً عظيماً ، ولكنه لم يكن ثائراً عظيماً ، كان قائداً عظيماً لأنه انتصر ، ولم يكن ثائراً عظيماً لأن نصره لم يدم طويلاً ، بل مات نصره أمام عينيه ، لماذا - لأن الثورة فكر . . يشارك فيه الجميع ، ولأن النصر خير لا بد أن يعم الجميع ، فإذا لم يشارك الكل في الفكر والنصر ، وقف القائد وحده في البرد والعراء بطلاً بلا رايات !!

ومن هنا تبدأ مجموعة الشبان في البحث لا عن القائد ولكن عن الثائر ، فالعصر الذي أنجب القائد « صلاح الدين » لا بد أنه أنجب ثائراً من الثوار . ويأخذ الشبان في اكتشاف هذا الثائر وتحديد ملامحه ، ويخلعون عليه من الصفات ما يجعله مثلاً أعلى ، أما أهم صفاته فهي أنه جاء يحمل فكراً ، كتاباً اسمه « باب الفتوح » ، وهو شاب عرني ، جاء من أشبيلية بالأندلس . . ولكن اسمه « أسامة بن يعقوب » . . ولكن لماذا جاء ؟

ليقابل « الناصر صلاح الدين » ، يقرأ له فقرات من كتابه فيترجمها إلى سلوك وفعل ، باختصار ليقول له :

« ما من شيء يدفع عبداً أن يستشهد ليصون الحرية للأسياد ، أن يحمي أرضاً لا يملك فيها شبراً ، أن يحفظ عيناً لا يعطى منها جرعة ماء ، أن يمنح دمه ليجيا جلدوه » .

وعبثاً يحاول « أسامة » أن يلقي « صلاح الدين » ، فهو يلاقي عنتاً من رجال الشرطة حتى يهرب من أشبيلية في طريقه إلى « صلاح الدين » ، ويلاقي عنتاً من المؤرخ « عماد الدين » الذي ينظر إليه في سخط. ويقرأ كتابه في غضب ، ويوقع به عند « سيف الدين » قائد الجند الذي يفكر في قتله ، ولكنه يخشى أن يُلطخ نصر « صلاح الدين » بدم عرني ، فيأمره بالعودة إلى الأندلس ، ولكن أسامة الثائر

يوصل طريقه إلى القدس للقاء « صلاح الدين » .

وأمام أبواب عكا ، يلاق أسامة نفس التعت من رجال الشرطة ، وهو تعت لا يقتصر على أمثاله من الثوار ، ولكنه يمتد ليشمل جمهور العامة ، فها هم الأهالي العرب يقفون أمام أبواب عكا فرحين بانتصار « صلاح الدين » ، يحاولون دخولها والعودة إلى ديارهم ، ولكن جند « صلاح الدين » يمنعهم من الدخول حتى يؤذن لهم . وينبى « أسامة » من بينهم متحدثاً باسمهم ، مطالباً بدخولهم إلى مدينتهم ، فيتعرف عليه « سيف الدين » ويأمر بالقبض عليه ، إلا أن « زياد المصرى » كاتب المؤرخ « عماد الدين » الذى كان قد انبهر بكتاب « أسامة » ، ينهه إلى ذلك ، ويساعده على الهرب ، فيواصل « أسامة » ، رحلته إلى القدس . وفى الطريق إلى القدس يلتقى « أسامة » بقوافل العائدين ، ويتعرف على أسرة فلسطينية هى أسرة « الشيخ أبو الفضل » المعجوز الهرم الذى تغطى المائة ، وكان قد شهد غزو الفرنج للقدس ، وآهم يقتلون الأطفال وهتكون النساء ويحرقون كل شىء . وعاش حياته يحلم بالعودة ، وها هو يعود إلى قدسه المحررة ، والفرحة تملأ خلاياه ، ولكن أحلام الشيخ سرعان ما تخيب ، فالدار لم تعد داره ، سكنها يهودية تدعى « سارة » . وابنة لها تدعى « سيمون » ، والدار عشت فيها النحاسون ، والأفاقون ، وتجار الجوارى ، وتجار الغلال ، وها هم الشرطة يحولون بين الشيخ وبين الدار تحت ستار القانون والمحافظة على الأمن .

ويتمكن « أسامة » من دخول القدس مع أسرة الشيخ المعجوز ، ويلتقى فى المدينة بمجموعة الشبان الذين علموا من « زياد » بأخبار كتابه ، ووضعوا أنفسهم تحت أمره ، وراحوا يتشاورون فى الطريقة التى يقابلون بها السلطان ، أما « أسامة » فيصمم على أن يقابل بنفسه « صلاح الدين » ، وأن يخوض مع الشرطة المتربصين

به هذه المغامرة ، وأما مجموعة الشبان فيحمل كل منهم نسخة من (باب الفتوح)
ويسمى بها في قطر من الأقطار حتى تبلغ أفكاره أفئدة العامة ، فإن ضاع « أسامة »
بقي الكتاب .

وهل موكب « صلاح الدين » وهو ذاهب إلى المسجد ليقم الصلاة ، ويسمى
كل شاب إلى اختراق صفوف الشرطة ليعطى الكتاب للسلطان ، ولكن الشرطة
تقبض عليهم واحداً بعد الآخر ، بتهمة محاولة الاعتداء على حياة السلطان .
ويسقط شاب وراء شاب ، وتحرق نسخة في إثر نسخة ، ولكن بعد أن يكونوا قد
زرعوا في الأرض شجرة اسمها « أسامة » ، وبعد أن تكون هذه الشجرة قد أثمرت
فكراً اسمه (باب الفتوح) .

ويبقى (أسامة) وحده مع النسخة الأصلية من الكتاب ليقوم بالمحاولة الأخيرة .
ونظّل الشرطة تحول بينه وبين ملاقة السلطان ، حتى ينزى التجار . . تجار
الغنائم والأسلاب ، أصحاب المصالح الطبقية في هذا النصر ، فيضعون خطة
للإيقاع « بأسامة » وتسليمه إلى رجال الشرطة ، تساعدتهم في ذلك اليهودية
« سارة » وابنتها « سيمون » ، ويتكاثرون على الفتى ، ويتكاثرون ، حتى يسقط
تحت كروشهم المعتلّة بأكل الجياح ، وأجسادهم المنفوشة بلبس العرايا ، وأيديهم
الملطخة بدم الشهداء . يموت الفكر . . ويبقى السيف بلا سند يحميه ، فلا يدوم
نصر « صلاح الدين » طويلاً ، لأن الفرنجة سرعان ما يعودون ليجتولوا البلاد من
جديد .

هذه هي مسرحية « باب الفتوح » وهذا هو مضمونها الجوهرى ، الذى عرف
الكاتب الناضج « محمود دياب » ، كيف يصوغه صياغة تجمع بين الحدث
المسرحى البسيط وبين الإطار الملحمى التعليمى ، بين الحوار القوى المحادر وبين

الشخصيات الحية والشخصيات النمطية ، بين التاريخ الماضى وبين الحاضر المعاصر ، بين الكورس الذى يعبر عن ضمير الجماعة وبين الكورس الذى يشارك فى الأحداث ، فى الفعل التاريخى وفى إعادة صياغة التاريخ .

والمرحبة يلتحم مضمونها بصياغتها التحاماً كاملاً حتى لكأنها الكائن الحى فوق المسرح ، الكائن الذى يتنمى إلى تراثنا بتاريخه وإلى حاضرنه بعصره . وهذا كله من أجل إضاءة جوانب الواقع ، ومضاعفة حجم الحياة ، وإثارة ضمير الإنسان .

وكم كان المخرج الكبير « سعد أردش » أميناً مع هذا كله ، واعياً به عن اعتقاد واقتناع ، فعرف كيف يحمّد النص فوق المسرح ، بل عرف كيف يطور المضمون والصياغة معاً من خلال التركيب البسيط ، والفكر الحى ، والحركة المتناغمة ، والعرض الواصل أولاً إلى ذهن المتفرج ، وبعد ذلك إلى ضميره . لقد نجح فى أن يجعل من العرض قضية ، ومن الصالة ساحة قضاء ، ومن الجمهور قضاة فى محكمة التاريخ ، وشهوداً على معطيات العصر .

وكان المخرج بارعاً فى تحقيق التأثير الفكرى والوجدانى جميعاً ، من خلال المزج المحسوب بدقة بالغة بين الحدث الدرامى المسرحى والإطار الملحمى التعليمى ، فالإيهام الدرامى يؤدى دوره وكسر الإيهام يستكمل الدور ، وبذلك يتحقق الانفعال بالمواقف وفى ذات الوقت تأمل القضايا ، والمشاركة الوجدانية مع الحلم والتأمل الذهنى للتاريخ .

وهذا هو الذى ساعد على إنقاذ العرض من الوقوع فى هوة المسرحية التاريخية ، والارتفاع به إلى المستوى الرمضى الأكثر تعبيراً والأقوى تأثيراً ، فتاريخية العرض المسرحى ليست سوى المهاد الفنى الذى تتحرك فوقه الأحداث المعاصرة .

وقد نأخذ على المخرج ببطء الإيقاع بوجه عام ، وقد نعترض على العبارات المسجلة بصوته والمؤداة بطريقة (البلاى باك) لما فيها من تعليمية مباشرة ، وأكاد أقول تدريسية ماذجة . وقد نعب على (رقصة الدبكة) تفككها وعدم أدائها بإتقان ، وقد نلاحظ على نهايات الفصول الثلاثة فتوراً لا يكاد المتفرج يشعر معه بنهايات الفصول ، ولكن هذا جميعه لا يقلل فى شىء من روعة هذا العرض وبراعته ، ومن أننا بحق أمام مخرج كبير ، أليس بحسب لهذا المخرج اختياره للنص المسرحى ؟ .

غير أن براعة « سعد أردش » فى تجسيد مسرحية (باب الفتوح) ، كقيلة بأن نجعلنا نعود إلى باقى عناصر العرض المسرحى التى عرف كيف يوظفها ويستثمرها فى بناء « باب الفتوح » ، فى طليعتها الأشعار العامية الدافئة والمعبرة التى وضعها الشاعر « عبد الرحمن الأبنودى » ، وصاغها لحناً الفنان « كمال بكير » ، وأداها أداة دالا وموحياً المطرب « محمد حام » فكانت فى مجموعها إضافة للنص تنسجم مع مضمونه وصياغته ، ومع (المنهج الأردشى) ، فى الإخراج أروع انسجام .

كذلك كان الديقور الذى أبدعته الفنانة « سكينه محمد على » ، ممتازاً ومتميزاً ، ممتازاً فى وفائه خطوطاً وألواناً ومستويات بكل ما يتطلبه العرض وتستلزمه الحركة المسرحية ، ومتميزاً فى شخصيته المتكاملة من حيث الجمع بين الجمال التشكيل والأداء الوطنى ، واستيعابه لكافة أبعاد العرض ، للديقور التاريخى والديقور المعاصرة ، للديقور الحلم والديقور الواقع ، للديقور الوظيفة والديقور الفن .

أما عن طاقم الأداء التمثيل فقد كان فى عموميه متناغماً منسجماً بعضه مع

البعض الآخر ، حتى في تناfre وتصارعه لم يفقد طابع التناغم والانسجام ، على رأسهم جميعاً يقف العظيم « عبد المنعم إبراهيم » بحضوره القوى وأدائه الأقوى ، بفهمه لدوره وتفهمه للعمل ككل ، لقد برع في تجسيد الصورة التمثيلية للمورخ التكيف مع السلطة ومع الوضع الاجتماعي ، مضيفاً على هذه الصورة لمسات من فنه هو . . . ذلك الفن الرفيع .

وبعده يحيى القدير « محمد الدفراوى » الذى تألق في دور « سيف الدين » . وأداه بوعى واقتدار ، لا افتعال ولا انفعال ، بل كان طراحاً موضوعياً لدور رئيس الشرطة المتدمج في النظام ، ساعده في ذلك بناؤه الفيزيقي القارع ، وصوته الجمهورى المعبر . وبعدهما يحيى الممتازة « فردوس عبد الحميد » بأقدامها الراسخة فوق المسرح ، وتمكنها من ناحية الأداء المسرحى ، بساطة ملؤها العمق ، وتعبيره كله الرقة وشخصية أهم ما يميزها العيز ، وصوت قادر على التنقل بمهارة بين الأداء والغناء . ثم يحيى « محمد عنانى » في دور « زياد » ليؤديه بتوفيق واضح ، ويلفت بأدائه الأنظار والاسماع ، فلا تخطئه عين ولا تغفله أذن

أما « رشدى المهدي » في دور « أبى الفضل » فلا أدرى على من يعاب أسلوبه في الأداء ، عليه هو أم على المخرج ؟ لا لعب في أدائه وهو ممثل ممتاز ، ولكن لأن أسلوبه في الأداء كان نشازاً بين باقى الممثلين ، فقد أدى دوره بأسلوب التقمص الوجداني المملوء بالانفعال ، والكل يؤدى بالأسلوب التعليمى الذى يحرص على مخاطبة الذهن أكثر من حرصه على إثارة الوجدان ، أما « محمد وفيق » فلم يكن موفقاً على الإطلاق في دور « أسامة » . كان أسلوباً ضائعاً بين الأسلوبين .. الدرامى والملمحى فسقطت الشخصية بين يديه ، ولم يكن مثيراً ، ولا مقنعاً ، كان « أى كلام » ، إن « عبد الله غيث » كان أنسب من يقوم بهذا الدور .

إن « باب الفتوح » هى الباب الذى يمكن أن يعبر منه مسرحنا المعاصر ، من
الأزمة إلى الانفراج ، إنها نسيم يهب علينا من مسرح الستينيات ، نستشقى فيه عبق
المسرح الحقيقى ، ولكن هل مسرحية واحدة تكفى ، ما أحوالنا حقاً إلى أكثر من
باب من أبواب الفتوح !!